الغربة والاغتراب

لعل اصدق قانون ينطبق على الحياة هو قانون «الفعل ورد الفعل» او قانون الآلية الدفاعية ازاء كل طارئ يحرف المعايير والمقاييس التي اعتاد عليها الانسان.

وهذا الطارئ يدخل ضمن مفهوم «القمع» لان القمع هو العامل الاول والحاسم في الغربة والاغتراب، فهو يقوم مقام «الفعل» اما «رد الفعل» فهو الآلية الدفاعية التي بمقدورها ازاحة هذا القمع او التخفيف في تأثراته بغية اعادة التوازن الى الميزان المختل. ان القمع سيكولوجياً هو «حالة قطع لكل المقتضيات والمسارب الحياتية الموضوعية المتاحة للانسان في وطنه». ازاء هذا القمع لابد من رد فعل يقاومه والا تعرض كل الدوافع والرغبات النفسية الى حالة كبح في الاعماق نتيجة للاعاقة البيئية والاجتماعية لما يمكن تنفيسه منها. فحين يحصل تصادم بين الفرد والمجتمع على المستوى الفكري او الاجتماعي او الثقافي او الاقتصادي فان الآلية الدفاعية للفرد التي بامكانها تحقيق التوازن لاتخرج عن ثلاث احتمالات هي:

١. اما التكيف او الاذعان للمجتمع وقبوله على سلبياته.

٢. واما المواجهة واتخاذ الموقف الثوري بغية تغيير المجتمع.

٣. واما الانسحاب والهروب من المجتمع ويشمل الانسحاب صوراً متعددة: منها الاعتزال داخل المجتمع واجترار المعاناة واحلام اليقظة ليشبع بها الرغبات التي بقيت دون اشباع على صعيد الواقع فيستسلم لها المرء احياناً كوسيلة للهروب من واقعه.

ومنها الانتحار وطلب الموت بوصفه حلاً للتناقضات وخلاصاً من المعاناة التي تعج بها الحياة والصورة الاخيرة للهروب هي المكاني اي التحول الى مكان آخر ينتفي فيه القمع كتعويض عن المجتمع المحبط لكل الدوافع والرغبات، وهذه هي الهجرة. فالهجرة هي رد فعل سلبي بما تعرضت له حرية الفرد والتي لم تجد متنفساً لها في ارض الوطن فقام يبحث عنها في ارض اخرى.

اسباب الغربة / تنحصر اسباب الغربة في اربعة عوامل:

١. العامل السياسي / وهو ان تفرض الدولة او النظام الحاكم اطواقاً من السيطرة على حياة الناس، فتصادر كل احساس بالحرية، وتقاوم كل محاولة للفكاك من هذه القيود الخانقة التي ترهق حياة الناس وتسلمهم الى نوبة من الركود الذي يشبه الموت.

٢. العامل الاجتماعي / ويتجلى هذا العامل في تفشي التخلف والجهل والمرض في طول البلاد وعرضها او ان يكون نمط الحكم اقطاعياً او عشائرياً قائماً على الاستغلال الطبقي او ان يكون المجتمع منقسماً الى طبقات غنية وفقيرة مسحوقة.

٣. العامل الديني / ويظهر هذا العامل جلياً في البلدان المختلفة الاديان والمذاهب كالعراق مثلاً ويزيد من هذا الاختلاف تعدد الطوائف والمذاهب داخل الدين الواحد. ويعد التعصب لطائفة ما او مذهب ما من اشد العوامل المساعدة على تاجيج نار العداوة بين الاغلبية والاقلية من جهة، وبين الطوائف المتعددة من جهة اخرى، الامر الذي يزعزع استقرار البلاد ويجعلها في دوامة لاتهدأ.

والقمع الديني مرتبط اشد الارتباط بالقمع السياسي نظراً لاعتماد هذه الدول على سياسة (فرق تسد).

٤. العامل الاقتصادي / ولعله العامل الاول والدافع الاساسي للهجرة، ومن هنا تكثر الهجرة في الدول الفقيرة او الدول التي لاتعرف استقراراً اقتصادياً.

هذه هي ابرز العوامل الموضوعية التي تدفع بالفرد الى الهجرة، فالهجرة هي حصيلة لتداخل هذه العوامل التي يتضافر بعضها مع بعض.

اما الاغتراب فيدخل ضمن اطار الهروب، ولكنه اشد وقعاً وتأثيراً على الفرد من الناحية السيكولوجية، وهو مرض غالباً ما يصيب ارباب العلم والنخبة المثقفة من الادباء، والشعراء، والفنانين والمتفوقين في مجال ما، فهم يعيشون على ارضهم وبين اهلهم ولا يشعرون بالانتماء نتيجة التصادم الفكري بينهم وبين المجتمع الذي يعيشون فيه، الامر الذي يجعلهم يشعرون بعزلة وعدم الاندماج بالمعايير الاجتماعية والثقافية للمجتمع فالاشخاص الذين يفضلون حياة العزلة والاغتراب لايرون قيمة كبيرة لكثير من الاهداف والمفاهيم التي يثمنها افراد المجتمع. فالاغتراب هنا يعني (انعدام التجانس والانسجام بين الفرد وبين البيئة التي يعيش فيها). حينها يصبح مشغولاً بعالم آخر بعيد المنال يمثل له الوطن المفقود ويعوضه عن الوطن الحقيقي الذي لايعيش فيه معنوياً وان كان يعيش فيه (جسدياً)، اذ يعيش الفرد في وطنه ولكنه يستشعر عمق الهوة بينه وبين الناس من حوله فهو غريب عنهم وهم غرباء عنه لايفهمونه ولا يقدرون له مواهبه فينشأ على اثر ذلك الصدام المحتدم بين الانا والآخرة او بين ارادة الذات وارادة النوع، ومن الطبيعي جداً ان تكون نتيجة هذا الصراع الانعزال او الانسحاب من المجتمع والتقوقع في زاوية مظلمة فالفرد يجد نفسه غارقاً في زحام المادة التي تجعله عبداً لها وتجعله غريباً في مجتمع صناعي قائم على ضجيج الآلات ودخان المصانع، مجتمع يحاصر الافراد ويطاردهم بافانين الدعاية ليجبرهم على الوان معينة من السلوك تتلائم وسياسة الانتاج التي لاتكف عجلتها عن الدوران، مما يجعل الفرد يحس بانه يحيا في مجتمع يخنق حريته، ويحرمه متعة الاحساس بتوجيه نفسه بنفسه، ويكون المجتمع بهذا قد خلق لافراده المشاكل النفسية التي تجدد حيرتهم، وتقتل مشاعرهم في الوقت الذي اراد ان يحررهم اقتصادياً. وتعد النزعة المادية هي ابلغ الاسباب الداعية الى الاغتراب. لقد ادت التطورات العلمية السريعة التي طرأت على العالم في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الى تحكم العلم التجريبي في تسيير دفة العصر، فسادت المادية وتعقدت الحياة اليومية وازدادت مطاليب الانسان فيها، وبالمقابل ازدادت حيرته وقلقه وتفاقم عجزه عن تلبية هذه المطاليب، ومن ثم عجزه عن التكيف مع هذا العالم فعاش مشتت الفكر مضطرب النفس مما اوقعه في دوامة الضياع والاغتراب النفسي.

وهكذا فالغربة والاغتراب هما هروب من الواقع. الا ان الغربة هروب مكاني او تحول موضعي اذ يختار الفرد واقعاً بديلاً عن واقعه الذي يعيشه. في حين ان الاغتراب هو هروب نفسي او خيالي فهو تحول داخل الواقع اي انسحاب من المجتمع او الواقع الى زاوية مظلمة فيه والغريب والمغترب على حد سواء يعانيان من الشعور بالدونية فالغريب يشعر بانه مواطن من الدرجة الثانية او حتى الثالثة. والمغترب يشعر بانه شخص منبوذ داخل واقعه او انه مواطن شاذ. ازاء هذا الشعور بالدونية ينمو شعور بالتعويض وهو حلم بالوطن المثالي كبديل عن الوطن الحقيقي وكبديل ايضاً عن الوطن الغربة (المهجر). وهكذا نجد ان العلاقة بين الواقع والمثال علاقة جدلية، فحينما يعجز الواقع عن تحقيق الحد الادنى من الرغبات والحاجات البشرية المادية والروحية فان المثال يصبح القبلة التي يولي الفرد وجهه نحوها.

وهذه هي «اليوتوبيا» التي كثيراً ما تحدث عنها الشعراء، والفلاسفة ورجال الدين.

ن. ق.

كلية الآداب قسم اللغة العربية